أثر الأخلاق الرواقية في الفكر الأخلاقي القديم

الأستاذ محمد وادفل

قسم الفلسفة، جامعة منتوري قسنطينة

ملخص

سنخصص الحديث في هذا المقال عن المدرسة الرّواقية لما لها من جوانب فلسفية وميتافيزيقية طبيعية ارتبطت بمسائل منطقية وأخلاقية.غير أنّ فلسفة الرّواقيين عموما والجانب الأخلاقي خصوصا يكتنفه غموض ونقص بسبب ضياع كثير من المؤلفات وقد نجد شذرات من هذه الكتب.

إلى هنا يمكن أن نتساءل : هل يمكن اعتبار ما أنتجته المدرسة الرّواقية في الميدان الأخلاقي أصيلا ؟ وهل يمكن أن نتحدث عن أثر الأخلاق الرّواقية في بقية الفلسفات مثل ما نجده عند أفلاطون من خلال مؤلفاته ؟

Résume

Afin de traiter l'influence morale du stoïcisme sur la pensée morale antique, il faut bien connaitre la morale stoïcienne, sa relation avec la philosophie et traiter les concepts moraux les plus importants et faire la comparaison avec d'autre doctrines qui affirment ou nient les rapprochements suivants :des êtres philosophiques moraux (Epicurisme –Christianisme)

Puisque le but de la philosophie stoïcienne est de fonder une morale, c'est pour cela que les définitions stoïciennes pour la philosophie est de faire un éclaircissement sur la morale qui est au fond une doctrine morale et une règle de vie intérieure, et s'il y avait un conflit entre les premiers successeurs de cette école pour la logique et de la philosophie de l'univers, il reste des accidents pour la substance de la philosophie stoïcienne... .

مجلة منتدى الأستاذ: المدرسة العليا للأساتذة في الآداب و العلوم الإنسانية .سطح المنصورة.25000، قسنطينة، الجزائر

الهاتف /الفاكس:98 29 62 31 (0) 213 00

e-mail :bouhrourh@yahoo.fr / bouhrourh@gmail.com

مقدمة:

بما أنّ الفكر الأخلاقي وليد بيئته، فهو يرتبط بمخلفات فكرية(فلسفية)واجتماعية وسياسية، وإن كان فضل الفلاسفة اليونان في الميدان الأخلاقي يرجع إلى الأعمال التي تمثلت في البحث عنْ الإنسان الفاضل من خلال مؤلفات كتبت في المرحلة التي عرفت بالمرحلة السقراطية(سقراط-أفلاطون-أرسطو).أما المرحلة ما بعد السقراطية فقد تمثلت في مدارس اهتمت هي الأخرى بالمسألة الأخلاقية التي تبحث هي الأخرى عن الإنسان الفاضل. لكن بطريقة فلسفية تختلف عن المرحلة السابقة، ومن هذه المدارس الفلسفية نذكر المدرسة الابيقورية والمدرسة القورينائية والمدرسة الرّواقية.

وسنخصص الحديث في هذا المقال عن المدرسة الرّواقية لما لها من جوانب فلسفية وميتافيزيقية طبيعية ارتبطت بمسائل منطقية وأخلاقية.غير أنّ فلسفة الرّواقيين عموما والجانب الأخلاقي خصوصا يكتنفه غموض ونقص بسبب ضياع كثير من المؤلفات وقد نجد شذرات من هذه الكتب.

إلى هنا يمكن أن نتساءل : هل يمكن اعتبار ما أنتجته المدرسة الرّواقية في الميدان الأخلاقي أصيلا ؟ وهل يمكن أن نتحدث عن أثر الأخلاق الرّواقية في بقية الفلسفات مثل ما نجده عند أفلاطون من خلال مؤلفاته ؟

من الملاحظ أنّ مشروعية البحث عن الحياة الأخلاقيّة عند فلاسفة الأخلاق اليونان تستدعي منهم الاهتمام بحل المشكلات الأخلاقيّة بطريقة فلسفيّة فهم يبنون أساسا للأخلاق سواء أذكر هذا الأساس أم فهم أثناء البحث وهو أنّ الإنسان في هذه الحياة لا عمل له إلا أن يعيش وفق الطبيعة

هذه الفكرة وإن كانت قد ظهرت مع بداية التفلسف في القضايا اليونانية المتعلقة بالمشكلات الأخلاقية (مع سقراط وأفلاطون وأرسطو)، فإنّ بروزها قد عرف تطورا مع بداية ظهور الفلسفة الرّواقية وذلك بإعادة إحياء فكرة أخلاقية تمثلت في العيش وفق الطبيعة بطابع فلسفي أكثر فهما للتعبير عن حقيقة هذه الطبيعة.

إلى هنا نحاول من خلال هذا المقال الإجابة عن سؤالين هامين هما:

- ما الذي تصبو إليه الطبيعة البشرية من خلال الأخلاق الرّواقية؟
- وإذا كان الخير المطلق حسب الأخلاق الرّواقية هو السّعادة والسّعادة هي الخير، فما السّبيل إلى الحصول عليها؟

من الملاحظ أنّ المشكلة الأولى تتعلق بتعريف الخير الأعظم (المطلق)، أما المشكلة الثانية فتتعلق بمشكلة تحديد السّلوك (الواجب). ومنه، ليست المذاهب الأخلاقية اليونانية ومنها المذهب الأخلاقي الرّواقي إلا محاولات مختلفة لحل هاتين القضيتين الأساسيتين، لذلك فإنّ التحدث عن أثر الأخلاق الرّواقية في الفكر الأخلاقي القديم يقتضي معرفة الأخلاق الرّواقية وعلاقتها بالفلسفة، والتطرق إلى أهم مصطلحاتها الأخلاقية ومقارنتها بمذاهب أخلاقية تثبت أو تنفي مقاربات بينها من خلال نصوص فلسفية أخلاقية منها (الابيقورية والمسيحية).

الفلسفة والأخلاق الرّواقية:

بما أنّ هدف الفلسفة الرّواقية هو تأسيس الأخلاق، فإنّ تعريفات الرّواقيين للفلسفة تبين أن للأخلاق المكان الأول، باعتبار أنّ الغاية القصوى هي أن نعيش على وفاق مع الطبيعة ذلك أنّ الطبيعة تقودنا إلى الفضيلة.ولذلك، فإنّ موضوع الفلسفة هو الفضيلة ذلك أنّ زينون الرّواقي(Zénon) اعتبر أنّ الطبيعة تقودنا نحو الفضيلة، ولذلك فإنّ الرّواقية في صميمها مذهب أخلاقي وهي تقوم على قاعدة للحياة الباطنية، وإن كان هناك احتدام بين أقطاب الأوائل لهذه المدرسة* حول المنطق وفلسفة الكون، فإنّ هذه الأمور تبقى عرضية بالنسبة إلى جوهر الفلسفة الرّواقية.(1).

ويمكن العودة إلى أحد ممثلي المذهب التجريبي قديما وهو سكتوس امبيريقوس** Sextus Empiricus لتحديد مفهوم الفلسفة الرّواقية في قوله: "يرى بعض الرّواقيين أنّ أقسام الفلسفة ثلاثة: المنطق – الطبيعة – الأخلاق، إلا أنّ الأسبقية تعطى للمنطق وذلك من حيث تدريس.هذه الفلسفة وهو ما سبب جدلا حول مسالة بأي معرفة يجب أن نبدأ" ?.(2).

هذا التقسيم الذي أشار إليه سكتوس امبيريقوس Sextus Empiricus يوضح أنّ أجزاء الفلسفة الرّواقية متكاملة ومتفاعلة داخليا ولا يمكن أن نفصل بعضها عن بعض عند دراستها.

ولئن اختلف الفلاسفة الرّواقيون حول كيفية دراسة هذه الأقسام من حيث الترتيب،فهناك من يركز على إعطاء الأولوية للمنطق ومن هؤلاء زينون الرّواقي (Zénon) في كتابه : **المعيار** وهذا ما ذهب إليه كريسب(Chrysippe) وأرخميدس (Archimède) أما ديوجين ديتلومي (Diogène De Ptolémée) فيبدأ بالأخلاق، بينما يعطي كل من بانيتيوس (Panitius) وبوزودينيوس(Posidinius)الأولوية للطبيعة(3)

ومهما يكن، فإنّ كان هناك اختلاف بين الفلاسفة الرّواقيين حول أسبقية دراسة أقسام الفلسفة، فالغاية واحدة وهو معرفة قوانين الطبيعة والسّير وفق مقتضياتها مع الاستعانة بالمنطق. كما يلاحظ أنّ حضور سيادة المشروع الفلسفي الرّواقي بإعطاء الأولوية للطبيعة عن بقية الجزأين السّابقين (المنطق والأخلاق) مردّه إلى أنّ الحكيم الذي يعيش حياة توافق مع الطبيعة هو نفسه توافق مع العقل، وكل من الطبيعة والعقل هدفهما واحد وهو الوصول إلى الفضيلة، فوجود التطابق بين العقل والطبيعة يجعل من غير الممكن الفصل بين الفرد والمواطن في علاقتهما بالطبيعة.

ومن الواضح أنّ هذه الأقسام ما هي إلا أنواع متعدّدة من الفلسفة، فموضوع الفلسفة هو الفضيلة. كما أنّ هذه الأقسام الثلاثة للفلسفة جعلت الرّواقيون يعتبرون الفضيلة علما مثلهم في ذلك مثل سقراط الحكيم.

لهذا، فإن كان الخير الحقيقي عند الرّواقيين هو تحقيق قدر كاف من الفضائل (منطقية – طبيعية – أخلاقية) والعيش وفق العقل والطبيعة، فإنّ سقراط الحكيم هو الآخر يرى في الخير تحقيق الفضائل، لأنّ الفضيلة هي العلم والرذيلة هي الجهل. وإنّ أهم ما تتميز به الفلسفة الرّواقية هو مسألة توافق الإنسان مع العالم ومع نفسه (4) وعملية التوافق هذه تتطلب وجود الإنسان الحكيم الذي يقوم نشاطه على أساس فن الفضيلة.

لذلك، يمكن تصور رؤية الحياة الفاضلة في الفلسفة الرّواقية في كونها لا تكون في انعزال الإنسان عن الطبيعة وأنّ مسالة التوافق أساسية لتحقيق وجود الحكيم الذي يعمل على فهم الطبيعة ودراسة التعاطف الكوني.

وعليه، يصبح العيش على وفاق مع العقل هو العيش على وفاق مع الطبيعة الكونية —العالم- الله.

إنّ هذه الطبيعة حسب المدلول الرّواقي لا تتوقف عند الجانب البيولوجي الطبيعي الخاص بتلبية الحاجيات البيولوجية ولا عند القيّم باعتبار أنّ الإنسان شخص موهوب بالوعي الأخلاقي فحسب، بل لها مفهوم أوسع وذلك بالارتقاء إلى المدلول الميتافيزيقي الذي يهتم بكل ما هو موجود.

وهذه إشارة إلى أنّ الميتافيزيقا حسب الرّواقيين تؤمن بوحدة الوجود، فالطّبيعة في حد ذاتها هي الله وأنّ هذا العالم هو الحيوان العقلي، والله هو الرّوح الكلي الذي يسري في جميع الكائنات. ومن هنا يمكن أن نستشف أنّ أساس الفلسفة الرّواقية هو في إعطاء الطّابع العقلاني للأخلاق.

ويتجلى إعطاء هذا الطابع الأخلاقي في الفلسفة الرّواقية في وحدة الأفكار والأفعال والعيش على وفاق مع الطبيعة وبالتالي على وفاق مع الله ومع العقل مما يجعلنا نقرّر أنّ وحدة الوجود عند الرّواقيين بين الطبيعة والله أساسها العقل الذي يعطي للأخلاق إمكانية الارتباط بالطبيعة الكونية ولذلك يمكن صيّاغة ذلك على الشكل التالي:**ما هو طبيعي إلهي وما هو إلهي عقلي**

إذن، إنّ وجود هذه الفلسفة الرّواقية يقتضي وجود الأخلاق، فالفلسفة ممارسة للفضيلة وهي واحدة لا تتجزأ (فضيلة المنطق — فضيلة الطبيعة — وفضيلة الأخلاق)،لأنّ الأخلاق الرّواقية من جهة هي تجسيد لنشاط الفيلسوف على أساس استنباط عقلاني للسّلوك الإنساني، ومن جهة أخرى تقويم إصلاح ما فسد من هذا السلوك وهو ما يسمى بالنظام البيداغوجي في تأسيس الأخلاق الفاضلة والابتعاد عما هو غير أخلاقي. وبما أنّ الإنسان الفاضل في الفلسفة الرّواقية يستوجب منه التوافق مع الطبيعة الكونية بما يسمى المواطن الكوني (Cosmopolis)***، فإنّ

طبيعة هذا المواطن جزء من هذا النّظام الطبيعي والعودة إلى هذه الحياة الطبيعية هي أن نحيا وفق الأدوات التي منحتنا إياها الطبيعة (5).

وهذه إشارة مرّة أخرى إلى أنّ هذه الفلسفة لا تستوجب وجود الإنسان الحكيم الذي يعيش وفق الطبيعة التي تقوده إلى الفضائل فحسب، بل تمنح الطبيعة للإنسان الحكيم الأدوات التي ليست في متناول الجميع وبها يملك مفتاح الفضيلة وبها يتمكن من إعطاء السّعادة (6).

لهذا، لا يمكن أن تمنح الطبيعة الأدوات لهذا الإنسان حتى يصبح حكيما إذا لم يعش الحياة الطبيعية التي تمكنه من الارتقاء إلى عالم الفضيلة، وتحقيق الخير الذي يتمثل في السّعادة.

وهنا، إشارة إلى وجود اختلاف مفاهيم الخير باختلاف مفاهيم السّعادة وأنّ الأخلاق هي العلم بالحياة السّعيدة، وأنّ مفهوم الأخلاق لا يستلزم البحث عن السّعادة فحسب، بل يتطلب معرفة وجوب الفضيلة وأنّ السّعادة ضرورية لطبيعتها كونها تتطلب من الحكيم القيام بالواجب حتى يحقق السّعادة.

وعليه، فلا يمكن فصل القيام بالواجب والفضيلة عن السّعادة، فالبحث عن السّعادة إما أن تجعل الإنسان يقوم بواجباته الأخلاقية وإما أنّ القيام بالواجبات هي وحدها التي تحقق له السّعادة. لكن حسب الرّواقيين فإنّ مصدر السّعادة لا ينال إلا بالقيام بالواجبات.

وعليه، فإنّ السّعادة حسب الرّواقيين مجاهدة ومكافحة ليس ضد الطبيعة ولكن العيش وفق الطبيعة، وليس استسلاما وخضوعا للقدر المستبد، بل عملية تحرّر من قيود الأهواء والانفعالات غير العقلانية.

يتضح إذن أنّ الإنسان الذي يؤدي واجباته في الفلسفة الرّواقية بإمكانه الوصول إلى السّعادة، فلا وجود للسّعادة إلا بوجود الفضيلة وترابطها الوثيق يجعل الحكيم يبصر الانسجام الكوني والإنساني ويتقبل مفهوم القدر على أنّه مفهوم إلهي وهو لا يتناقض مع مفهوم الحرية الإنسانية ولا يوجد تعارض بين مفهوم الحرية ومفهوم القدر.

ويمكن توضيح مفهوم "القدر" عند الرّواقيين من خلال نص ديوجين Diogène Laerce الآتي: "جميع الأشياء تجد مكانا لها ضمن "القدر" والقدر

حسب "كريسيب" من خلال مقاله: "القدر" وحسب يوزودينوس من خلال كتاب: القدر يتمثل في كونه السّبب الذي يجعل الكائنات تتصل ببعضها البعض والعقل هو الذي يسيّر العالم" (7).

ومن هنا، فإنّ مفهوم الحرية عند الرّواقيين لا يعني الاستسلام والخضوع لقدر مستبد يسير وفق الضرورة الإلهية، فوجود الألوهية مرهون بوجود العناية الإلهية وأنّ هذه النتائج تثبت الإقرار بأنّها فن. (8).

هذا الإله الذي تكتنف عنايته الإلهية حياة جميع الناس تصبح من نصيب الحكيم الذي يدرك هذا الانسجام الإلهي فيقبل قانون القدر الذي أعطاه للعالم الإله زوس Zeus والذي يرتب ويوجه كل شيء فهو رمز العناية والعقل.

ولذلك، فإنّ المواطن في هذا العالم وكل مفكر حر لا يخضع إلا لنفسه (9) وأنّ فهم المواطن الحكيم لقانون الطبيعة الكونية لا يجعل التعارض بين القدر وحرية الحكيم ولهذا، يمكن اعتبار أنّ الأخلاق الرّواقية هي جوهر أساسي لوجود هذه الفلسفة، وبهذا يتم للمواطن الكوني (Cosmopolis) التّعرف على القانون الكلي وذلك بفهم أنّ الطبيعة إلهية وكاملة (10) وأنّ المواطن الحر هو الإنسان الفاضل.

أما المفاهيم الأخلاقية الرّواقية فأهمها ما يتعلق بفلسفتهم وهي الفضيلة (La Vertu)، وقد ورد في معجم المصطلحات الفلسفية (11) أنّ الفضيلة بشكل عام هي استعداد دائم لسلوك طريق الخير ومطابقة الأفعال الإرادية لقانون الأخلاق، منها ما يتعلق بأمهات الفضائل (Les Vertus Cardinales)، ومنها ما يتعلق بالفضائل الإلهية (Les Vertus Théologiques).

أما أمهات الفضائل فهي الفضائل الرئيسية عند فلاسفة الأخلاق اليونان وهي تتعلق بالمرحلة السقراطية وهي : الحكمة والعدالة والشجاعة والعفة، في حين أنّ الفضائل الإلهية هي أمهات الفضائل في اللاّهوت المسيحي وهي الإيمان والرّجاء والمحبّة.

وحسب الرواقيين، فإن الفضيلة مصطلح رئيسي متعلق بجوانب فلسفية طبيعية وأخلاقية ولاهوتية، أما الفضيلة من جانبها الفلسفي حسب الرّواقيين فإن

موضوع الفلسفة هو الفضيلة، في حين أن الفضيلة من جانبها الطبيعي هي الغاية القصوى من هذه الفلسفة وهو العيش وفق الطبيعة التي تقودنا إلى الفضيلة.

أما الجانب الأخلاقي، فإنّ هناك فضيلة الأخلاق التي يعبر عنها فلاسفة هذه المدرسة حسب نصوصهم أنّ الخير الأعظم (الأعلى) يوجد في جمال الأخلاق، وكريسيب (Chrysippe) من مؤسسي المنطق الرّواقي قسم هذا الجزء من الفلسفة إلى عدد كبير من الفصول:

الأشياء الحسنة والسيئة – الانفعالات – الفضيلة... (12).

وهنا، إشارة إلى أنّ الفضيلة التي يتحدث عنها كريسيب من خلال هذا التقسيم ضرورية للأخلاق، لكن هذه الفضيلة ليست أخلاقية فقط، بل هناك فضائل أخرى تتعلق بالقسمين الآخرين لفلسفتهم، فهناك فضيلة الجدل التي هي جزء أساسي من المنطق، وهي تحوي على فضائل أخرى مثل: التبصر – الحذر – البصيرة – والقدرة على مواجهة الحجج في الأمور المحتملة (13).

ومن بين أهم المصطلحات التي اهتم بها الرواقيون وأعطوها تمييزا داخل إطار الأخلاق هي الأخلاق النظرية والأخلاق العملية، منها ما يخصص للأخلاق المثالية وأخرى تخصص مدخلا للإنسان، وهناك مقالة حول الواجبات (De Officius) لسيشرون (Cicéron) يمكن أن يتمثل مثالا ذو امتياز للأخلاق العملية (14).

أما مصطلح الصداقة L'amitié، فهو حسب الرّواقيين ليس علاقة مودّة خالصة بين الأشخاص قائمة على التعاطف والألفة فحسب، بل علاقة لما نحب طبيعيا الأشياء التي نبحث عنها وهي الخيرات. ولكن، الذي يمتلك معرفة الخير فهو أيضا يكون أكثر معرفة بمحبتها ، فالذي لايعرف تمييز الخير عن الشر وما ليس خيرا وليس شرا فهو لا يستطيع أن يحبّ، لهذا، فإنّ الحكيم وحده ينتمي إلى المحبّة (الحب) (15)

يتضح، أنّ الأخلاق الرّواقية هي طبيعية ومنطقية، لأنّ الفيزياء (الطبيعة) الرّواقية هي قبل كل شيء أخلاق وأسلوب حياة قائمة على أساس العقل وبالمقابل فإنّ الإبيقورية تريد تحرير الإنسان من القلق والاضطرابات غير النافعة وتطبيق ما هو مضلل قصد الوصول إلى نهاية هادئة مطمئنة (16).

وبهذا المفهوم الأخلاقي، فالرواقية ليست فضيلة بمفهوم الأخلاق المنفصلة عن العالم الخارجي، بل فلسفة كونية سياسية (Cosmopolitique) التي تضع قيمة معتبرة للعلاقة المنسجمة مع الرجال والآلهة والقدرة وهي تتعلق بمجموع الأشياء التي لا تنفصل عنا وهي قوة جليلة محبكة في نسيج من الصداقة لكل الأشياء فيما بينها (17).

بين الأخلاق الرواقية والأخلاق الابيقورية:

وإن كانت الرّواقية تختلف عن الابيقورية، فإنّهما فلسفتان لهما أهمية في الفكر الفلسفي والأخلاقي. وبما أنّ للابيقورية أثر كبير في الفكر الأخلاقي القديم والحديث على حد سواء فقد حملت هذه الفلسفة رؤية جديدة تخالف الرؤية الأفلاطونية والأرسطية، وببساطة أنّ تعاليمها وتركيزها على مبدأ اللذة كدافع حيوي جعل إتباعها يتزايدون مع مرور الأيام في حين كانت المدارس الأخرى تتراجع شيئا فشيئا.ولأنّ المدرسة الإبيقورية تريد أن تجعل من الطبيعة(الفيزياء) فلسفة تهدف إلى تحرير الإنسان من القلق والاضطرابات غير الناقعة والسعي إلى نهاية مطمئنة،فإنّ البنية الفلسفية لهذه المدرسة أن تنبذ جانبا لكل تحذلق منطقي و ميتافيزيقي جعلها أقرب ما تكون إلى فلسفة شعبية أو عقيدة عامية. في حين كانت الرّواقية فلسفة النخبة المثقفة.إذ كانت تنظر إلى الفيزياء(الطبيعة) كونها حكمة في حد ذاتها، وليس أداة لصاحبها قصد الوصول إلى المبتغى،وهي كذلك فلسفة كونية سياسية تريد أن تضع قيمة للعلاقة المنسجمة مع العالم ومع الرجال والآلهة والقدر(18) ولعلّ ذلك مايفسر العداء والسخرية التي كان الرّواقيون يواجهون بها أطروحات ابيقور وتلامذته. لذلك نجد كرنياد (Carnéade) يقول: تعليقا على نموذج الحكيم الابيقوري إنه لكي يكون سعيدا

"يحتاج إلى البحث في يومياته كم من مرّة كانت له علاقة ممتعة وكم من مرّة دعي إلى مأدبة فاخرة" (19)

وهنا إشارة واضحة إلى أنّ هذا التعليق يقدم انتقادا لاذعا إلى الحكيم الابيقوري كون أنّ سعادته تكمن في إرضاء ما هو حسي دون الاعتماد عمّا هو عقلي وكذلك، يمكن تحديد التأثير المتبادل بين المدرستين من خلال ما نلاحظه من

شهرة الابيقوريين للكتابات الرّواقية وردودهم – رغم الطابع التهكمي لتلك الردود – فإذا أخذنا المستوى الفكري الأخلاقي تستعمل المدرستان مفهوم واحد للأتاركسيا*** (L'Ataraxie) وإن كانت التسمية تختلف، لكنها تشتركان في اشتراط حصول السّعادة والقضاء على الألم الجسماني، ومن ثم استرجاع التوازن الفيزيولوجي والقضاء عل الخوف وتحصيل الطمأنينة (20).

وقد يتضح التأثير المتبادل بين المدرستين في مفهومهما للزهد (21)، فالزهد عندهما لايقوم على الانفصال عن الطبيعة، بل بمحاولة إعادة التماثل بين الأخلاق والواقع.فالأساس النظري للزهد هو اعتبار الأشياء لا قيمة لها في ذاتها ولا تستحق منا أي اهتمام إلا بقدر حاجتنا إليها ولذلك يقول ابيقور (Epicure) في إحدى رسائله:

"إذا أرادت إثراء فيتوقلاس، فلا تضف إلى ثرائه، بل قلل من حاجاته" (22).

ومما يلفت الانتباه أكثر إلى وجود التماثل والتأثير بين المدرستين قول الرّواقي مارك اوريل (Marc Aurèle) مرددا صدى قول فيلسوف الحديقة: "تأمل كثيرا في السرعة التي تنشل بها كل الموجودات وتنعدم (...)ألا يعد أخرقا للشخص الذي تملؤه مثل هذه الأشياء غرورا أو تمزقه كربا" (23).

وتأكيد على وجود التأثر المتبادل بين الفلسفتين في قول ابيكتيت "ليست الأشياء ما يلحق الاضطراب بالبشر وإنما آراؤهم حولها"، وهذا القول هو صدى واضح للحكمة الابيقورية التي تقول: "ليس البطن هو الذي لايشبع كما تعتقد العامة من الناس – وإنما الرأي الباطل الذي لدينا عن قدرته اللاّمحدودة" (24).

الأخلاق الرّواقية و الأخلاق المسيحية: يرى الأستاذ هنري سدجويك (H.Sedjuik) (1838-1900) في كتابة:**المجمل في تاريخ علم الأخلاق** أنّ المسيحية لا تختلف في جوهرها عن الأخلاق الوثيقة من جهة التأكيد على سلامة الغرض الذي تهدف إليه من تمجيد للفضيلة لذاتها وقمع للرغبات الشريرة، وبالتالي، فالرواقية أقرب إلى المذهب الرواقي (25) وبالمقابل نجد ايرازم (Irasem) يذهب إلى أن المسيحي هو أفضل تلميذ لابيقور(26)، ويشاركه ديكارت (Descartes) في ذلك ويرى أن الفضيلة الرّواقية نظرا لقوتها ومحاربتها للذة لم يمكن لها أنصار

سوى ذوي العقول المجردة تماما عن الجسد، في حين أن إيبقور لم يبتعد عن الصواب لما وضع السعادة و الغبطة في المتعة عموما أي في رضى الفكر (27).

ومن هنا، يتبين أن اختلاف وجهات النظر بين الرواقية والابيقورية في البحث أيهما اقرب للروح المسيحية راجع إلى الخلفية الفلسفية للمدرستين مختلفة كثيرا ،فمن الناحية الميتافيزيقية تكون الرواقية أقرب لما تتضمنه من مبادئ مشتركة مع المسيحية حول الكون والإنسان ومن الناحية الأخلاقية تكون الابيقورية أقرب إلى جوهر الديانة المسيحية لتضمنها الزهد والخضوع والصبر وإماتة الشهوات، أو بتعبير آخر اللذة السلبية، غير أنّ الطابع الإلحادي المنافي للإيمان المسيحي جعل هذه المقاربة تبدو مستحيلة لدى كثير من مؤرخي الفلسفة، غير أننا لا ننكر بعض التقارب عند بعض كبار رجال الكنيسة مثل ابيلار (Abilard) (1079-1144) حيث يقيم مذهبه الأخلاقي على نوع من التوفيق بين الفلسفة القديمة والمسيحية مستنتجا نتائج طريفة مثل أنّ الحب نفعي بالضرورة (28).

بيد أنّ هذه العلاقة بين المذهب الرّواقي والمسيحية في وجود عناصر مشتركة بينهما، لا يمنع من وجود اختلاف بينهما، فإذا كان بين الحكيم الرّواقي والقديس المسيحي بعض نقاط الشبه، إلاّ أنّ بين المثل الأعلى للرّواقي والمسيحي فرقا عميقا، فالرّواقيون يرون أنّ الفضيلة نعلمها بالعقل وحده، وهي مجاراة الفطرة الإنسانية التي هي في صميمها إلهية طيبة، والفضيلة عندهم مستكفية بنفسها وليست بحاجة إلى شيء آخر، أما المسيحي فيرى أنّ الفضيلة شأن من شؤون الإيمان والعاطفة قبل أن تكون شأنا من شؤون الفضيلة عند المسيحي هي مكافحة الطبيعة لأنها فاسدة ورجس من عمل الشيطان (29).

وإن كان الفكر الرّواقي في الجانب الأخلاقي لا يمكن استبعاده عن الفلسفة الرّواقية،باعتبار من جهة أنّ الأخلاق هي جزء من الفلسفة،ومن جهة أخرى أنّ الفلسفة بصفة عامة اكتشاف يوناني والفلسفة الرّواقية بصفة خاصة حلقة من حلقات الفلسفة اليونانية ونموذج فريد لبعث أجزاء الفلسفة(المنطق-الطبيعة-الأخلاق) وفق نسق متكامل منسجم.

ويبقى توضيح أنّ هناك أثرا لا يستهان به للأفكار الرواقية، ليس على المستوى الفكري اليوناني فحسب ، بل على المستوى الفكري العالمي.

وما يمكن استخلاصه أنّ للرواقية دور كبير في التاريخ الثقافي الغربي، وتبقى الرّواقية الفلسفة الكاشفة للنهضة عن طريق مونتيني (Montaigne) وتحديد ما هو إنساني عن طريق جوست ليباز (Guste Lipse) (30)

وخلاصة القول أنّ معرفة المبدأ الأخلاقي عند الرّواقيين ليس غاية في ذاته, بل غاية الانسان الفضيلة وهي السّعادة الحقيقية. كما لا يمكن تصور فلسفة أخلاقية بمعزل عن الفلسفات الأخرى. وإن كانت الأخلاق الرّواقية تختلف عن الأخلاق الإبيقورية والمسيحية في بعض الجوانب,فإن هدفهم واحد وهو طلب السّعادة الحقيقية.لكن،كل يطلبها حسب نسقه الفلسفي.

لهذا يمكن الإجابة عن السؤالين السّابقين:

-أن الطبيعة البشرية تصبو إلى تحقيق الفضائل بأنواعها: المنطقية-الطبيعية-الأخلاقية.

-أما السبيل إلى تحقيق السّعادة الحقة فيستلزم حضور الحكمة وهذا ما أشار إليه الجاحظ في كتابه: **تهذيب الأخلاق** بقوله:« وينبغي لمن أراد سياسة أخلاقه أن يجعل غرضه من كل فضيلة غايتها ونهايتها ولا يقنع بما دون الغاية ولا يرضى إلا بأعلى درجة » (31)

وما يمكن استخلاصه، إن كان هناك اختلاف في وجهات النظر بين الرّواقية والابيقورية حول بعض المسائل المتعلقة بالمشكلات الأخلاقية،فهذا لا يمنع من وجود التأثير المتبادل بينهما،فمن جهة أنّ المدرستين ينتميان إلى مرحلة الفلسفة الهلينستية ***** ومن جهة أخرى،فإن كانت الخلفية الفلسفية للمدرستين مختلفة،فهذا لا يمنع هو الآخر تأثرهما بالرّوح المسيحية.لكن هذا التأثر ليس واحدا،فمن الناحية الميتافيزيقية تكون الرّواقية أقرب إلى المسيحية وذلك لما تتضمنه من مبادئ مشتركة مع المسيحية حول الكون والإنسان.أما الناحية الأخلاقية فتكون الإبيقورية أقرب إلى جوهر الديانة المسيحية لما تتضمن من أفكار مشتركة بينهما وهي تتمثل في الزهد والخضوع والصبر وإماتة الشهوات.

ومهما يكن،فإنّ عامل التأثر بين الفلسفات في الجانب الأخلاقي له أهميته الحضارية بين الأمم،فمن المستحيل أن نجد فلسفة أخلاقية دون أن تتأثر بغيرها

،كما لا يمكن أن يكون لفلسفة أخلاقية دون أن يكون لها تأسيس نسق فلسفي تؤهلها لكي تؤثر في غيرها.

ويتضح أنّ أثر الأخلاق الرّواقية في الفكر الأخلاقي القديم يتمثل في الهدف الأسمى، وذلك أن يلتزم الإنسان بالقاعدة الخلقية وهي أن يعيش هذا الإنسان وفقا للطبيعة،هذه الطبيعة هي العقل نفسه،وبهذا تصبح غاية الأخلاق أن يجعل الإنسان العقل مسيطرا على سلوكه.

وبهذا ،فالحياة الخلقية حسب ما تريده الأخلاق الرّواقية هي أن تفرض محاربة الشهوات واستئصالها،وهذه دعوة إلى التحكم في العواطف القائمة على أساس الانفعالات الهوجاء، وذلك بالارتقاء إلى المستوى العقلي.

كما أنّ الأخلاق الرّواقية هي دعوة إلى العالمية(Cosmopolis) وهي كلمة مركبة من لفظ (Cosmos) التي تعني الكون و(Polis) التي تعني المدينة،ويكون حاصل جمعهما في لفظ جديد هو المدينة الكونية أو العالم كله باعتباره مدينة واحدة.

والخلاصة من هذه الأخلاق وأثرها في الفكر الأخلاقي القديم هو محاولتها جعل البشر إخوة،وهي دعوة من جوهر الأخلاق الرواقية إلى الحب العالمي ، لا نجدها فقط في المسيحية أو في الإسلام ،بل نجد حضورها حتى في الفكر الأخلاقي الحديث مع كل من فلاسفة هذا العصر أمثال ديكارت وكانت...

قائمة المصادر والمراجع:

1. عثمان أمين، الفلسفة الرّواقية، الطبعة الثانية، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 1959 ص 202.

* الأقطاب الأولين لهذه الفلسفة: وهم ثلاثة فلاسفة هم: زينون الرّواقي (Zénon) مؤسس المدرسة الرّواقية وكريسيب (Chrysippe) واضع المنطق الرّواقي وكليونت (Cléanthe).

2. Burn (Jean), Les Stoïciens, textes choisis, P.U.F, 1957, 11-18 Sextus Empiricus, P 13.

** سكتوس امبيريقوس (Sextus Empiricus) حوالي 150-230 م، فيلسوف وطبيب يوناني اتخذ من التجربة بديلا من العقل ومن الشك في كل شيء عدا الظواهر الحسية، لقب بالتجريبي وهو معنى امبيريقوس (Empiricus).

3-Diogène (Laerce),Vie,Doctrine et Sentences des philosophes illustrés,Tome 2,Garnier Flammarion,Printed in France,Année 1965,P65

4- Bridoux (A), Le Stoïcisme et son influence, librairie philosophique, J. Vrin, 1966, P 73.

*** المواطن الكوني (Cosmopolis) هو المواطن الذي يعيش في هذا العالم دون وجود حواجز جغرافية سياسية (جيوسياسية).

5-Diogène Laerce, Vie Doctrines et sentence des philosophes illustrés ; TomeII, GARNIER FLAMMARION, Printed in France, 1965, P80.

6-Ducassé (Pierre), Les Grandes Philosophies « Que sais-je ? » P.U.F, 15ème Edition, 4 trimestre, 1976, P 64.

7-Bréhier (Emile), Les Stoïciens, Edition Gallimard, P 64.

8-Ibid, P 64

9-Ducassé (Pierre), OP, Cit, P 28.

10-Ibid, P 28

11-Rodis (Lewis), La Morale Stoïcienne, Sait- Germain, Paris, 1970, P 132.

12-عبد الحلو، معجم المصطلحات الفلسفية، المركز التربوي للبحوث والإنماء، الطبعة الأولى، مكتبة لبنان بيروت 1994، ص 178.

13-Carlos (Levy), Les philosophes hellénistiques, Librairie générale de Français, 1997, P 159.

14-Brun (Jean), Le Stoïcisme « Que sais-je ? », P.U.F, 5ème Edition, Saint-Germaine, P 45.

15-Anne Baudart, La Morale et sa philosophie, FLAMMARION, France, 1998, P 46.

16-Bréhier (Emile), Les Stoïciens, P 944.

17-Ibid, P 42.

18-Ibid, P 43.

19-Baudart(Anne),La morale et sa philosophie, Flammarion,France,1998 PP42-43

20-حلال الدين السعيد، ابيقور، الرسائل والحكيم دراسة وترجمة، تونس، الدار العربية للكتاب ص 123، نقلا عن ف. بروشار.

**** الاتاركسيا (L'Ataraxie): هو الحالة التي تكون فيها اللذة مرضية إذا لم تعرف انعراجا لحالة الإنسان النفسية والخالية من الألم والاضطرابات والبحث عن الخير الأعلى.

فالاتاركسيا هي مصدر للرغبات التي تغيب من خلالها الآلام وتكون مفتاحا للتكيف المنسجم مع العالم، وان كان هناك رغبات فمنها ما هو طبيعي ومنها ما هو ضروري، فالشرب والأكل طبيعيان وضروريان، أما إذا كان الشرب والأكل ما طاب للأنفس منهما فتعتبرهما طبيعيان وليس ضروريان (نقلا عن كتاب ANNE, Baudort, La Morale et sa philosophie, FLAMMARION, France, 1998, P 38.

21-جلال الدين سعيد، مرجع سابق، ص 122.

22-Escobas, Eliane, Ascétisme Stoïcien et Ascétisme Epicurien, in études philosophiques, N° 2, 1969, P 168.

22-ايقور، رسالة إلى ايدوميني، ذكرها جلال الدين السعيد في كتابه السابق، ص 144.

24-Escobas, Eliane, Ibid, P 167.

25-ايقور، الحكمة الفاتيكانية، ترجمة جلال الدين السعيد، تونس، الدار العربية للكتاب، 1991، ص 59.

26 -هنري سدجويك، المحصل في علم الأخلاق، ترجمة، توفيق الطويل وعبد الرحمان حمدي، الإسكندرية، (دار نشر الثقافة) الطبعة 1، 1949، ص 212.

27-جلال الدين السعيد، مرجع سابق، ص 08.

28 -رسالة اليزابيت بتاريخ 18 أوت 1646، نقلا عن جلال الدين السعيد،ص08

29-هنري سدجويك، مرجع سابق، ص 246

30-Chaim Pereleman, Introduction à la philosophie, Edition de l'université de Bruxelle 1980, P 49.

31-.عبد الفتاح أحمد فواد،الأصول الرّواقية في الفلسفة الإسلامية،الطبعة الأولى،دار الوفاء لدنيا الطباعة و النشر،2003،ص253.

*****الفلسفة الهيلنستية خاصة بالتاريخ العريق لليونان وثقافتهم،فهي تمزج بين ما هو يوناني بما هو شرقي ديني.وعرفت الفلسفة وبشكل خاص المنطق بعض التقدم في العصر الهيلنستي.وفي هذه الفترة امتدت السيطرة للفكرة المادية لليونان